مجلة المنهل ـ المجلد: 07، العدد: 01 (2021م) ـ ص ص 239 – 252
ISSN : 2437 – 1068 • EISSN 8392-2710

الحداثيون واستئناف القول بـ "خلق القرآن"

The modernists and the resumption of the saying of " the creation of the Qur'an"

حباسي خالد*
مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
جامعة الجلفة (الجزائر)
habkhaled@gmail.com

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2021/04/20	2021/05/21	2021/06/30

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

ملخص:

بما أن شبهة "خلق القرآن" هي من القضايا المشكلة في نقد الحداثيين للخطاب الشرعي الإسلامي، فسنذكر ملاحظات مهمة فيما يتعلق بتبنيهم لمقولة المعتزلة "القرآن كلام الله مخلوق"، التي استعاروها وجعلوها مدخلا لنقد القرآن الكريم، لأنه يحقق استراتيجيات النقدية التي تهدف إلى زحزحة الوحي عن المركز في النظام والوعي العقدي والفكري والعلمي في سياق راهننا الحضاري. ثم سنعمد إلى ذكر النتائج الحتمية لتبني هذه المقولة ، لنختم بذكر أوجه الفصل والمفارقة بين موقف المعتزلة وموقف الحداثيين من هذه الشبهة.

الكلمات المفتاحية:

كلام الله مخلوق؛ المعتزلة؛ الحداثيون، نقد الخطاب الشرعي؛ تاريخية النص القرآني؛ النص والواقع.

Abstract :

Since the suspicion of "the creation of the Qur'an" is one of the problematic issues in the modernists' criticism of Islamic legal discourse, we will mention important remarks regarding their adoption of mu'tazila saying "The Qur'an is the word of Allah is created", which they borrowed and made as an entry point for criticism of the Holy Quran, because it achieves critical strategies that aim to displace the revelation About the center in the system and the doctrinal, intellectual and scientific awareness in the context of our civilizational present. Then we will mention the inevitable consequences of adopting this saying, to conclude by mentioning the separation and the paradox between the position of the mu'tazila and the position of the modernists of this suspicion.

Keywords:

The Word of Allah is created; mu'tazila, hadith; criticism of the islamic discourse; the history of the Qur'anic text; the text and reality.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة :

تبنى جملة من الكتاب المعاصرين المنتمين إلى تيار الحداثة مسألة قديمة في التراث الإسلامي هي مسألة "خلق القرآن"، منهم كتاب وأدباء، ومنهم أناس يحسبون على الفلسفة والفكر، ومن هؤلاء وأولئك فئات دعت إلى اطراح الدين ظهريا ونبذه جانبا كما نبذته أوروبا، لتنطلق بعدها متحررة من إسار كهنوت دين واستبداد سلطة زمنية ، ذلك أنه في تقديرهم غير جدير بقياد دفة الحياة.

وقد استغلوا هذه المسألة وتوسلوها ابتغاء نقد القرآن والطعن فيه حتى يزحزح عن مركز الصدارة في الاستمداد المعرفي، وإزالة تلكم الهالة القدسية التي يكنها المسلمون لكتابهم المقدس.

فشبهة خلق القرآن هي من القضايا المشكلة في نقد الحداثيين للخطاب الشرعي الإسلامي، لأنها محمل رئيس تتبني عليه جملة من الآراء والقضايا الأخرى عن طريق الترتيب والتبعية.

الإشكالية والمنهج المتبع:

من خلال معالجة هذا الموضوع فإن الإشكالية فيه ستتمحور حول تساؤل جوهري هو:

هل استعار الحداثيون مسألة خلق القرآن لمجرد معارضة التصور السني الأشعري في هذه المسألة ؟

أو أن الأمر يتعلق بـ: هل النص القرآني إلهي في الأساس، أو أنه وليد بيئته ونتاج سياقات تاريخية محددة؟ ومن ثم تأكيد فكرة تاريخانية النص القرآني.

وقد يكون أنسب منهج نتبعه في هذا المقال المنهج التحليلي، الذي يعتبر كأي منهج علمي له قواعده التي يعتمد عليها، ويتمثل ذلك في ثلاثة محاور، وهي:

- التفكيك (التفسير)
- التقويم (النقد)
- التركيب (الاستنتاج)

2ـ خلق القرآن ..النشأة والسيرورة:

من المسائل التي اختلفت فيها أنظار المتكلّمين، مسألة حدوث كلامه تعالى أو قدمه، ولو تتبعنا مبتدأ طرح هذه المسألة تاريخياً لوجدنا أنها على مايراه الخوض التبشيري والاستشراقي كان من خلال الجدل الذي قام بين المسلمين والكنيسة، وكان أساس ذلك مادار من جدل حول "كلمته" في قوله تعالى: ﴿ ... **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ...** ﴾ **سورة النساء (4) ، الآية : 171 .**

فقد اعترض النصارى على المسلمين قائلين : من هو المسيح ؟ –إنه كلمة الله– فهل هذه الكلمة مخلوقة أم غير مخلوقة ؟ إن كانت غير مخلوقة كان المسيح هو الله، وإن كانت مخلوقة لم يكن قبل ولادته ذا كلمة وروح، فلابد أن هذا السبب في النزاع الذي وقع حول اعتبار القرآن مخلوقا أم حادثا (البوطي، 1997 ص127) .

ويمكن إرجاع هذه المسألة في رأي آخر إلى القرن الثاني، الذي يقال من خلاله (الكرباسي) إنّ أوّل من قال بكون القرآن مخلوقاً هو "الجعد بن درهم"، وبقيت طيّ الكتمان إلى زمن المأمون. أما على الرأي الأول فإننا نجد هذه الشبهة آنذاك قد طُرحت من خلال المغالطة والتلاعب بالكلمات ومعانيها المتعددة، ومن خلال الخلط بين المفاهيم و تشويهها بُغية الوصول إلى مزاعم باطلة (الكرباسي). وقد يرى البعض أن مسألة " خلق القرآن " هي في حقيقتها ليست إلاَّ واحدة من الشبهات والتشكيكات التي اخترعها النصارى في العصر الأموي ثم أعيد طرحها في أوائل القرن الثاني في عصر المأمون، وامتدت هذه الفتنة إلى عصر المتوكّل العباسي وما بعده (السبحاني، صفحة26).

يقول البوطي –رحمه الله–: أما أن رجال الكنيسة قد احتجوا على علماء المسلمين بهذا الكلام السخيف. فليس ببعيد، وإن كنا لا نثبته من الناحية العلمية إلا إذا نقل إلينا بسند صحيح يكسبنا اليقين.

وأما أن علماء المسلمين ، قد أسقط في أيديهم أمام هذا الكلام ، فتململوا وتحيروا فيما بينهم ، حتى اقتضاهم الأمر أن ينفسوا عن حيرتهم بما تنازعوا فيه من مسألة خلق القرآن – فهو سخف لا علم للتاريخ به على الإطلاق، ولا يمكن أن يصدقه العقل بحال من الأحوال (البوطي، 1997، ص128–129).

ويذكر المؤرخون أن أحمد بن أبي دؤاد كان في عصر المأمون كتب إلى الولاة في العواصم الإسلامية أن يختبروا الفقهاء والمحدّثين في مسألة خلق القرآن، وفرض عليهم أن يعاقبوا كلّ من لا يرى رأي المعتزلة في هذه المسألة .

وجاء المعتصم والواثق فطبقا سيرته وسياسته مع خصوم المعتزلة ، وبلغت المحنة أشدّها على المحدثين، وبقي أحمد بن حنبل ثمانية عشر شهراً تحت العذاب فلم يتراجع عن رأيه.

ولما جاء المتوكل العباسي نصر مذهب الحنابلة وأقصى خصومهم، فعند ذلك أحس المحدّثون بالفرج، وأحاطت المحنة بأُولئك الذين كانوا بالأمس القريب يفرضون آراءهم بقوة السلطان.

فهل يمكن عدّ مثل هذا الجدال جدالاً إسلامياً ، و قرآنياً ، لمعرفة الحقيقة و تبيينها ، أو أنّه كان وراءه شيء آخر (السبحاني، بحوث في الملل والنحل، 264-270).

ما المقصود بخلق القرآن ؟

3ـ معنى الخلق في اللغة:

قال العلامة اللغوي ابن منظور: الخَلْقُ في كلام العرب : ابتِداع الشيء على مِثال لم يُسبق إِليه ، وكل شيء خَلَقه الله فهو مُبْتَدِئه على غير مثال سُبق إِليه ، ﴿ ... **أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ **سورة الأعراف (7) ، الآية : 54.** (منظور، 85/10).

4ـ معنى الخلق في المصطلح الديني:

لا يختلف معنى "الخلق" في مصطلح علماء الدين عن معناه اللغوي ، فالمقصود بخلق القرآن دينياً هو أنه مخلوقٌ بمعنى أنه حادث غيرُ قديم ، أي أنه موجود مسبوق بالعدم ، فهو كائنٌ بعد أن لم يكن ، أي أن الله عَزَّ و جَلَّ خلقه بعد أن لم يكن موجوداً.

ومن يقول بعدم خلق القرآن يرى أن القرآن ليس بحادث "غير مخلوق" ، بل هو موجود غير مسبوق بالعدم.

ونجد أن ما أعلنه الشيخ الأشعري في هذا المجال هو القول بعدم كون القرآن مخلوقاً حيث قال: "ونقول: إنّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وإنّ من قال بخلق القرآن فهو كافر" (الأشعري، ص21).

ولعل النقطة الخلافية في مسألة كلام الله بين المعتزلة وأهل السنة والجماعة هي:

أن هنالك معنى لألفاظ القرآن يتكون منه الأمر والنهي والإخبار المتوجه إلى الناس وهو قديم. فما اسم هذا المعنى؟

المعتزلة: اسمه العلم إذا كان إخبارا، والإرادة إذا كان أمرا أو نهيا..

الجمهور: اسمه الكلام النفسي، وهو صفة زائدة على كل من العلم والإرادة قائمة بذاته تعالى.

وأما الكلام الذي هو اللفظ ، فاتفقوا على أنه مخلوق، وعلى أنه غير قائم بذاته سبحانه، باستثناء أحمد بن حنبل وبعض أتباعه، فقد ذهبوا إلى أن هذه الحروف والأصوات أيضا قديمة بذاتها، وأنها هي المعني بصفة الكلام (البوطي، 1997، ص126).

فالمعتزلة والآخرون متفقون على أن ألفاظ القرآن حادثة وأن معانيه قديمة وأن خلافهم محصور فقط في تسمية المعنى القديم: هل يسمى صفة الكلام، أم يسمى صفة العلم والإرادة؟..

لذلك فليس عجيبا كل العجب أن ترى في المستشرقين أو المبشرين من يفوه بهذا السخف رغم أن في رؤوسهم عقولا يفكرون بها، لأنها صنعتهم المعروفة.

ولكن العجيب والمضحك حقا أن تلتفت حولك فتبصر أناسا من العرب المسلمين يتباهون بنفس ذلك السخف ويدندنون بغين ذلك الهراء في نشوة وطرب بالغين. دون أن تبصر أي أثر للتأمل والفكر في شيء من كلامهم أو بحوثهم. (البوطي، 1997، ص129-130).

5ـ مسألة خلق القرآن عند الحداثيين ..الدواعي والتوظيف:

مما كنا قد ذكرناه خصوص النشأة والسيرورة التاريخية لمسألة خلق القرآن سيتبين حتما أن هذه المقولة ليست من الإشكالات الحداثية الراهنة، بل هي من آراء عرفت ضمن التراث الإسلامي، لكننا وجدنا أن الحداثيين استعاروها وجعلوها مدخلا لنقد القرآن الكريم، لأنه يحقق استراتيجيات النقدية التي تهدف إلى زحزحة الوحي عن المركز في النظام والوعي العقدي والفكري والعلمي في سياق راهننا الحضاري.

وتتصل الإشكالية لدى متوسليها وعند أركون باستراتيجية إزاحة الأبعاد "الميتافيزقية" أو زحزحة الغيبي المتعالي عن التمركز في جوهر النص القرآني، ولا تكمن الأهمية فقط في معارضة التصور السني الأشعري أو غيره في قضية "خلق القرآن"، بل يتجاوز الأمر ذلك إلى فكرة "هل النص إلهي في الأساس؟"، وهذه الفكرة تعود إلى منهج النقد النصي الأعلى[1].

6ـ معتمد البحث في إشكالية القول بـ"خلق القرآن":

يرى محمد أركون وأمثاله من الحداثيين أن البحث حول إشكالية القول بخلق القرآن تعتمد على الحفر الأركيلوجي، لذلك ينبغي الحفر في الذاكرة ونبشها من مرقدها ليذكر الناس بها، وللوصول أخيرا عبر مقولة القرآن مخلوق أن ذلك "يدل على أنه متجسد في لغة البشر، وهي اللغة العربية في هذا المقام"، وهذا

1 – هو منهج مطبق على التوراة والإنجيل من قبل، تقلده الحداثيون وطبقوه على الخطاب الشرعي الإسلامي بأسماء ومصطلحات مختلفة ...ويقوم مفهوم النقد النصي على استخدام عبارات متنوعة ومتقاربة تجتمع كلها نظريا وإجرائيا حول العبارة التالية: "إعادة تكوين نص مفقود أو الوصول إلى أقرب صورة له من خلال نسخ منقولة عنه أو اقتباسات تعود إليه أو مخطوطات أو ترجمات قديمة." ، وهو ينقسم إلى نقد أعلى ونقد أدنى.

يسهل المرور من البعد الوجودي [الأنطولوجي]، إلى بعد آخر [إبستمولوجي]، يصبح القرآن بمقتضاه خطابا ضمن شروط النقد الابستيمي دون حاجة إلى مبررات لا معنى لها.

فكيف وظفت مقولة "القرآن كلام الله مخلوق"، وكيف عمد الحداثيون إلى تفسيرها وربطها بالمرجعيات الفلسفية واللسانية الحداثية الغربية؟

7ـ ملاحظات هامة قبل البدء:

قبل البدء دخولا في لب الموضوع بودنا أن ننبه إلى ما يلي:

1 – أن من يسمون بالحداثيين كانوا يتبعون أسلوبا انتقائيا، يلتقطون مايوافق فكرة ويعضد نهجا سلكوه، وما كان يكر بالنقض والإبطال على أطروحاتهم من تراث الإسلام غضوا عنه طرفا ، وأبوا له كشفا. إضافة إلى أنهم لا يشرحون قضاياهم المتبناة ، ولا يعولون على أدلة الخصم، واعتراضات المخالفين، ولا تلمس فيما يستدلون به عقلا استدلاليا ولا حججا برهانية ناهضة.

2– أن المعتزلة والسادة الأشاعرة خصوصا كانوا للدين معظمين وللقرآن مقدسين، ولا أدل على ذلك من أنهم اعتبروا هذا الكتاب المصدر الأول للمعرفة فيما يسمى الآن بالمرجعية الأولى، وأنهم ما كانوا يرضون أو حتى يتخيلون مصدرا آخر يضاهيه أو يدانيه، وليس الأمر كما يظن البعض من أنهم كانوا يبطنون غير ما يبدونه للدارسين، ضف إلى ذلك ما يبين أنهم كانوا على استقامة وصلاح ظاهرين تناقلته كتب السير والتراجم يتمثلون فيه ويعتقدون أن العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل[1].

3– ما يلحظه الدارس لفكر وكتب الحداثيين أن مبتغاهم من وراء تبنيهم لبعض المسائل التي أحدثت لغطا وقلقا في التراث الإسلامي إنما هو السعي لترسيخ دين العلمانية ونشرها فكرا وثقافة وأسلوب حياة، متوسلين قضايا توسم بأنها من إنتاج الفكر الإسلامي في تاريخه المديد، وذلك حتى يسهل قبولها من لدن

1– لا يخفى أن المعتزلة على اختلاف طبقاتهم وبخاصة منهم الأوائل كانوا على جانب كبير من التأله والزهد والعبادة، إلى درجة يسلك فيها بعض كتاب السير والطبقات فئاما منهم في جملة الزهاد والعباد والمتصوفة، ولعل النماذج الأول ممن صحب الحسن البصري وتأثر به في هذا الجانب تذكر عن واصل بن عطاء كما وصفه ابن حبان أنه كان من أهل الورع والعبادة ، كان يصفُّ قدميه قياما لله، وكلما عرضت آية تنصر مذهبه سلم وكتبها، وأن عمرو بن عبيد كان من شدة تألهه وقيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن وصفه المنصور الذي كان يعظمه بقوله: "كلكم يمشي رويد كلكم يطلب صيد غير عمرو بن عبيد"، قال الذهبي معقبا: "اغتر بزهده وإخلاصه، وأغفل بدعته"، وشتان بين تنسك وأخلاق المعتزلة الأوائل –على ما هو معروف عنهم من آراء قد لا تروق لكتاب وباحثين–، وبين تهتك بعض من أرادوا إحياء مذهبهم من جملة الحداثيين والعقلانيين العرب المعاصرين .

المسلمين بزعم أن اليافطة التي علقت عليها إسلامية، وحول هذا المعنى يقول نصر حامد أبو زيد : "ليست العلمانية في جوهرها سوى التأويل الحقيقي والفهم العلمي للدين، وليست ما يروج له المبطلون من أنها الإلحاد الذي يفصل الدين عن المجتمع والحياة " (أبوزيد) (محمد،أركون، 1996، ص11).

4- يصرح جملة الحداثيين دون مواربة بأنهم إنما استفادوا فيما طرحوا من بعض أفكارهم وفيما ابتنوه من نظريات صادمة للشعور الديني على رأي المعتزلة في قولهم بأن القرآن كلام الله مخلوق وليس بقديم قدم كلامه سبحانه.

ومن المصرحين بهذا دون لف أو التواء نصر حامد أبو زيد الذي يقول :"وإذا كنا هنا نتبنى القول ببشرية النصوص الدينية ، فإن هذا الشيء لا يقوم على أساس أيدلوجي يواجه الفكر الديني السائد والمسيطر، بل يقوم على أساس موضوعي يستند إلى حقائق التاريخ وإلى حقائق النصوص ذاتها، وفي مثل هذا الطرح يكون الاستناد إلى الموقف الاعتزالي التراثي وما يطرحه من حدوث النص وخلقه، ليس استناداً تأسيسياً بمعنى أن الموقف الاعتزالي –رغم أهميته التاريخية–يظل موقفاً تراثياً لا يؤسس وحده وعينا العلمي بطبيعة النصوص، الموقف الاعتزالي شاهد تاريخي دال على بواكير وإرهاصات ذات مغزى تقدمي علمي، والمغزى لا الشاهد التاريخي هو الذي يهمنا لتأسيس الوعي بطبيعة النصوص الدينية" (أركون، ص139).

وأركون يصرح بأن الذي فتح الطريق الذي كان قد أغلق واختزل إلى ما ندعوه بـ(المستحيل التفكير فيه) ومهَّد لهذا إنما هو رأي المعتزلة في القرآن؛ فغدا بذلك الخيار الفلسفي المتعلق بمنشأ المعنى من خلال التفاعل بين اللغة والفكر فضاء واسعا وغنيا دشنه مفكرو المعتزلة من قبل كلام الله الوحي من أجل (مفكر فيه) متجدد باستمرار (أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، 2005، ص24) (أركون، قضايا في نقد العقل الديني: كيف نفهم الإسلام اليوم؟، 2000، ص297)

ومن جانب آخر كان أركون يرى أن المسلمين لن يخرجوا من وهدة التخلف ولن يتقدموا شروى نقير إلا إذا تبنوا الآراء التحررية والمنفتحة –على زعمه– للمعتزلة (أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص82) ، وهذا ما كان يذكر به مثنى وثلاث مثلا لما يقول: "فالحركة الثقافية الداعية لإحلال العقل والتجربة والملاحظة مكان النقل والتقليد والرواية بالأسانيد وإعادة الاعتبار لفكر المعتزلة وللفلسفة والمنطق

والعلم الطبيعي والمقابسة والمثاقفة مع الآخر تشكل جوهر الفكر الحديث".

لقد بشر الحداثيون بأن استعادة الفكر المعتزلي اليوم مكانته بوصفه فكرا عقلانيا مفارقا للفكر الإيماني سوف يحقق امتلاك الوسائل الكفيلة بمواجهة المشاكل التي تنثال على الفكر المعاصر من كل حدب وصوب بقوة أكبر وابتكارية أقوى وأعم" (محمد،أركون، 1996، ص82).

وفي هذا السياق نجد أيضا أن الرؤوس المنظرين للحداثة يمجدون المعتزلة وبخاصة في قولهم بخلق القرآن(سعيد، 1978). ص94. وكمثال على ذلك قول أدونيس بعد عرضه لمذهب المعتزلة وقولهم بخلق القرآن: "هكذا تتجلى أهمية التحول الذي نتج عن الاعتزال" (أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص ص 63-96).

5- ولهذا يمكن ملاحظة تعلق الحداثيين وتشبثهم بنفي الرؤية الإيمانية "القرآن ليس مخلوقا"، التي كانت مذهب الأشاعرة المشكلين لجمهور أهل السنة والجماعة، وهم ينعتون هذه الرؤية بالأرثوذكسية، ويعتقدون أن انتصارها إنما كان نتيجة تضافر عوامل سياسية واجتماعية مختلفة، ويعتبرون أن الفكرة هذه هي التي أكسبت النص صفة الأزلية، وهي التي خلعت عليه هالة القداسة وهيمنتها بفعل القهر والقمع السلطوي، الشيء الذي سبب التخلف الفكري والانهيار الحضاري الذي أصاب وكرث العالم الإسلامي قرونا طويلة من الزمن (الشوالي، ص145).

8ـ النتائج الحتمية لتبني مقولة المعتزلة "القرآن كلام الله مخلوق":

إن مما سيترتب حتما على القول بخلق القرآن النتائج التالية:

1- اعتبار القرآن نصا كغيره من النصوص وإخضاعه للنقد:

حيث نجد أركون بصراحة يقرر:"إن مجموع هذه النصوص يتطلب معاملة مزدوجة، فأولاً: ينبغي القيام بنقد تاريخي لتحديد أنواع الخلط والحذف والإضافة والمغالطات التاريخية التي أحدثتها الروايات القرآنية بالقياس إلى معطيات التاريخ الواقعي المحسوس، وثانياً: ينبغي القيام بتحليل التبيين كيف أن القرآن ينجز أو يبلور -بنفس طريقة الفكر الأسطوري الذي يشتمل على أساطير قديمة متبعثرة - شكلاً ومعنى جديداً" (أركون، الفكر العربي قراءة علمية، ص250).

ويقول نصر أبو زيد :"إن النص القرآني وإن كان نصاً مقدساً، إلا أنه لا يخرج عن كونه نصاً، فلذلك يجب أن يخضع لقواعد النقد الأدبي كغيره من النصوص الأدبية" (زيد، ص24).

2- تأثير البيئة في القرآن الكريم:

ومما يترتب حتما على استئناف الحداثيين القول بخلق القرآن هو الزعم بأن للبيئة تأثيرا في القرآن، يقول نصر أبو زيد: "الواقع إذن هو الأصل ولا سبيل إلى إهداره، ومن الواقع تكوّن النص، ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، ومن خلال حركته بفاعلية البشر تتجدد دلالاته، فالواقع أولاً، والواقع ثانياً، والواقع أخيراً" (أبوزيد، نقد الخطاب الديني، ص99).

بل يقتحم لجة الجرأة لما يشير إلى بشرية القرآن الكريم، وأن هذا النص إنما هو نتاج منفعل لثقافة فاعلة: "ففي مرحلة تشكيل النص في الثقافة تكون الثقافة فاعلاً والنص منفعلاً" (زيد)، أي أن النص من عند النبي محمد ابن بيئته وثقافته وليس من عنديات ووحي الله سبحانه.

3- لا إعجاز في القرآن العظيم:

ونفي الإعجاز نتاج طبيعي للقول ببشرية القرآن ونفي صفة الوحي عنه، وقد اجتهد البعض باحثا في التراث وعاملا بنصيحة الدكتور الجابري بأن ينتقي من تراثنا نفسه ما يساعد على نقد ونقض مسلمات وصلتنا، واحتلت من الوعي الإسلامي حيزا عظيما ؛ ونظر هذا وفكر وراجع ذاته وقدر فألفى مبتغاه في تبني قول النظام بالصرفة ونفي الإعجاز كما فعل الدكتور نصر أبو زيد لما قال :"إذا توقفنا قليلا عند مفهوم "الصرفة" ، وهو المصطلح الذي شاع بعد ذلك وصفا لتفسير النظام ، قلنا إن النظام يجعل المعجزة أمرا واقعاً خارج النص، ويرتبط بصفة من صفات قائل النص وهو الله".

إلى أن يقول: "وإذا كانت قدرة الله تعالى لا تغالبها قدرة البشر ولا تستطيع الوقوف إزاءها ، فإن العجز الذي يشير إليه النص في تحديه للعرب أن يأتوا بمثله كان عجزاً ناتجاً عن تدخل القدرة الإلهية لمنع العرب من قبول التحدي ومن محاولته. وليس في هذا الرأي إنكار للإعجاز، بل هو تفسير له خارج إطار علاقة النص بغيره من النصوص الأخرى. إنه –العجز– البشري الذي سببته قدرة الله، وليس –الإعجاز– أو التفوق القائم في بنية النص من حيث مقارنته بالنصوص الأخرى" (أبوزيد، مفهوم النص، ص146).

ومن القول بنفي الإعجاز جملة قرروا القول بنفي الإعجاز عن آيات الأحكام من باب أولى، وأنها ليست من القرآن المعجز المنزل من عند الله (محمد شحرور).

4- إسقاط مرجعية النص القرآني كنموذج معرفي:

ومما سيكون نتيجة للقول بخلق القرآن هو إسقاط المرجعية القرآنية، ذلك أنه سيحقق استراتيجياتهم النقدية التي تهدف إلى زحزحة الوحي عن المركز في النظام والوعي العقدي والفكري والعلمي في سياق راهننا الحضاري، وهذا ما يريدون الوصول إليه من خلال ما طرحوه من مشاريع فكرية. حيث يقول د.نصر أبو زيد :"آن أوان المراجعة والانتقال إلى مرحلة التحرر، لا من سلطة النصوص وحدها ،بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان في عالمنا، علينا أن نقوم بها الآن وفوراً قبل أن يجرفنا الطوفان" (أبوزيد، الإمام الشافعي وتأسيس الأيدلوجية الوسطية، ص190).

وكان حسن حنفي على هذه الشاكلة لما حدد مهمة التراث عنده فقال :"مهمة التراث والتجديد التحرر من السلطة بكل أنواعها، سلطة الماضي وسلطة الموروث، فلا سلطان إلا للعقل، ولا سلطة إلا لضرورة الواقع" (حنفي، ص45). ويعتبر حنفي أن :"الألفاظ الشرعية عاجزة عن أداء مهمتها في التعبير عن المضامين المتجددة؛ لذا يجب التخلص منها" (أبوزيد، الإمام الشافعي وتأسيس الأيدلوجية الوسطية، ص110).

5- المناداة بتاريخية النص القرآني:

المقصود بتاريخية النص القرآني الزعم بأن القرآن نص بشري، وبما أنه نص بشري فهو إنما كان "حدث" لمعالجة وقائع تختص بزمن نزوله، وأن صدوره إنما كان من محمد صلى الله عليه وسلم المتسم بأنه بشر ، لذلك فإنه لا يصلح لهذا الزمان، لأن كل زمن كفيل بأن ينتج أهلوه النصوص الحاكمة والمرجعية الضابطة .

نص أركون على ما أراده من قراءته لما قال :"أريد لقراءتي هذه أن تطرح مشكلة لم تطرح عملياً قط بهذا الشكل من قِبل الفكر الإسلامي ألا وهي: تاريخية القرآن، وتاريخية ارتباطه بلحظه زمنية وتاريخية معينة" (أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص212) ، وهي من جملة القضايا التي دندن حولها تيار الحداثة في العالم العربي ليقرر مبدأ تاريخية النص القرآني معتضدا برأي المعتزلة، ومنطلقا من قولهم

بخلق القرآن، لتتخذ خنجرا في خاصرة الدين وبابا منه يلج رواد العلمنة والحداثة ليطعنوا دينا عصيا على النقد ، ويهزوا الثقة بمصادر تشريع شهد أهل الاختصاص من المخالف بعد المؤالف على أنها أدق وأعظم مصادر تصلح لتنظيم حياة البشر.

ويقول أركون أيضا عن مفهوم التاريخية :" إن التاريخية ليست مجرد لعبة ابتكرها الغربيون من أجل الغربيين، وإنما هي شيء يخص الشرط البشري منذ أن ظهر الجنس البشري على وجه الأرض . ولا توجد طريقة أخرى لتفسير أي نوع من أنواع ما ندعوه بالوحي أو أي مستوى من مستوياته خارج تاريخية انبثاقه وتطوره أو نموه عبر التاريخ ، ثم المتغيرات التي تطرأ عليه تحت ضغط التاريخ ... ينبغي أن أكرر هنا مرة أخرى ما يلي: إن التاريخية أصبحت [اللامفكر فيه] الأعظم بالنسبة للفكر الإسلامي لسبب تاريخي واضح جدا يتمثل في رد الفعل السني الذي حصل على يد المتوكل عام 848م ، أي قبل حوالي ألف ومائتي سنة. ثم تلاه ورسخه رد الفعل القادري ، وهو رد الفعل الذي أدى إلى تصفية الفلسفة التي تشتمل على علم الكلام المعتزلي وبخاصة ما يتعلق منه بالأطروحة القائلة بخلق القرآن . قد سارت على نهج المتوكل جميع الأنظمة السياسية التي تعاقبت على أرض الإسلام منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا (أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، 2005، ص41).

والذي لاحظه الدارسون لفكر الحداثة أن نقدهم هذا مستل من كتب أساتذتهم المستشرقين، فلم يرتفعوا حتى ليؤسسوا منهجا نقديا ذاتيا دون أن يتوكأوا على الفكر الاستشراقي في هذا الميدان.

9ـ أوجه الفصل والمفارقة بين موقف المعتزلة وموقف الحداثيين (بنعمر، 2017، ص146-147):

والحقيقة التي نتوصل إليها من خلال السياحة الفكرية في آراء المعتزلة ومفهوم فكرة خلق القرآن التي نادوا بها في سياقات معينة وضمن شروط أصولية دقيقة، والمفاهيم المختلفة للحداثيين وما ابتنوه من مقدمات للوصول إلى نتائج ذكرنا بعضها، هي أن قول المعتزلة بخلق القرآن يختلف عن قول الحداثيين بذلك من عدة أوجه تقتضي الفصل والمفارقة الجذرية بين الموقفين.

1- الوجه الأول: قال المعتزلة بخلق القرآن، ولم يحملهم ذلك على القول بنزع قداسته وإلهيته، كما قال بذلك الحداثيون.

2- الوجه الثاني: لقد كان قولهم بخلق القرآن مبالغة في تنزيه الباري عز وجل وتوحيده، ولم يقولوا إن القرآن بعد صدوره انفصل عن الله، وأصبح نصا لغويا لا فرق بينه وبين الأدب والشعر.

3- الوجه الثالث: قال المعتزلة بخلق القرآن ولم يقولوا ببشريته أو اعتباره نتاج فاعلين اجتماعيين كما قال الحداثيون.

4- الوجه الرابع: قال المعتزلة بخلق القرآن ولم يجعلهم ذلك يحكمون سببا بتفسيره طبقا لخصوص أسبابه وعزله عن صلته بعموم ألفاظه كما زعم الحداثيون.

10ـ نتائج البحث:

بعد هذه الرحلة السريعة في موضوع استعارة الحداثيين مسألة خلق القرآن وتوظيفها في مشاريعهم الفكرية وأطروحاتهم النظرية نخلص إلى ذكر أهم النتائج معتصرة مما مر بنا ومما قد أتينا على ذكره بنوع من التفصيل والشرح:

1- يرى الحداثيون أن بحث مسألة خلق القرآن يعتمد على الحفر الأركيلوجي، لذلك ينبغي الحفر في الذاكرة ونبشها من مرقدها ليذكر الناس بها، وهذا حتى يسهل المرور من البعد الوجودي [الأنطولوجي]، إلى بعد آخر [إبستمولوجي]، يصبح القرآن بمقتضاه خطابا ضمن شروط النقد الابستيمي.

2- اتبع الحداثيون أسلوبا انتقائيا، يلتقطون فيه ما يوافق فكرة ويعضد نهجا سلكوه، وما كان يكر بالنقض والإبطال على أطروحاتهم من تراث الإسلام غضوا عنه الطرف وتعمدوا إغفاله.

3- تبين من خلال البحث أن مبتغى الحداثيين من وراء تبنيهم لبعض المسائل التي أحدثت لغطا وقلقا في التراث الإسلامي إنما هو السعي لترسيخ دين العلمانية ونشرها فكرا وثقافة وأسلوب حياة.

4- يصرح جملة الحداثيين بأنهم إنما استفادوا فيما طرحوا من بعض أفكارهم، وفيما ابتنوه من نظريات صادمة للشعور الديني على رأي المعتزلة في قولهم بأن القرآن كلام الله مخلوق وليس بقديم قدم كلامه سبحانه.

5- يعتبر الحداثيون أن فكرة: "القرآن ليس مخلوقا" هي التي أكسبت النص صفة الأزلية، وهي التي خلعت عليه هالة القداسة وهيمنتها بفعل القهر والقمع السلطوي، الشيء الذي سبب التخلف الفكري والانهيار الحضاري الذي أصاب وكرث العالم الإسلامي قرونا طويلة من الزمن.

6- ولهذا بشر الحداثيون بأن استعادة الفكر المعتزلي اليوم مكانته بوصفه فكرا عقلانيا مفارقا للفكر الإيماني سوف يحقق امتلاك الوسائل الكفيلة بمواجهة المشاكل التي تنثال على الفكر المعاصر من كل حدب وصوب بقوة أكبر وابتكارية أقوى وأعم.

7- تبين كذلك من خلال طرق هذا الموضوع أن مما سيترتب حتما على القول بخلق القرآن النتائج التالية:

- اعتبار القرآن نصا كغيره من النصوص وإخضاعه للنقد.
- تأثير البيئة في القرآن الكريم.
- نفي الإعجاز عن القرآن العظيم.
- إسقاط مرجعية النص القرآني كنموذج معرفي.
- المناداة بتاريخية النص القرآني.

8- قول المعتزلة بخلق القرآن يختلف عن قول الحداثيين من عدة أوجه تقتضي الفصل والمفارقة الجذرية بين الموقفين، وقد قمنا بذكر تلك الأوجه في هذا المقال.

11ـ قائمة المراجع:

1- أبو زيد نصر حامد ، النص والسلطة والحقيقية، إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي.

2- أبو زيد نصر حامد ، نقد الخطاب الديني، المركز الثقافي العربي.

3- أدونيس علي أحمد سعيد، 1978م. الثابت والمتحول (تأصيل الإبداع أو التحول)، ط1، بيروت ، لبنان، دار العودة.

4- أركون محمد ، 1996م، الفكر الإسلامي "قراءة علمية"، تر هاشم صالح، ط02، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، بيروت، مركز الإنماء العربي،.

5- أركون محمد ، 2000م، قضايا في نقد العقل الديني: كيف نفهم الإسلام اليوم؟ تر: هاشم صالح، بيروت، لبنان، دار الطليعة.

6- أركون محمد ، 2005م، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، تر:هاشم صالح، ط2، بيروت لبنان، دار الطليعة .

7- الأشعري أبو الحسن ، 1411هـ-1990م. مقالات الإسلاميين، صيدا بيروت، المكتبة العصرية.

8- الأشعري أبو الحسن ، 2011. الإبانة عن أصول الديانة، الرياض، دار المسلم للنشر.

9- البوطي محمد سعيد رمضان، 1997، كبرى اليقينيات الكونية، دمشق، دار الفكر.

10-حنفي حسن ، ط04، 1992م، التراث والتجديد، ، لبنان. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

11-السبحاني جعفر ، المتكلم والصفات الخبرية ، لبنان، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام.

12-شحرور محمد ، الكتاب والقرآن – رؤية جديدة، دار الساقي.

13-الشوالي عزوز بن عمر، ط01 ، 2017. التناول الحداثي للخطاب الشرعي الإسلامي وإشكاليات المنهج"البدائل المستعارة والتطبيقات المأزومة"، القيروان، منشورات مركز الدراسات الإسلامية.

14- غريديه لويس وقنواتي جورج ، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية ، بيروت، دار العلم للملايين.

المواقع الالكترونية:

15- صالح الكرياسي، مقال هل القرآن مخلوق أم قديم؟ مركز الإشعاع الإسلامي للدراسات والبحوث الإسلامية، تاريخ التصفح والرابط على الشابكة: 2021/04/15،

https://www.islam4u.com/ar/almojib